التجرد

يتعذر على الإنسان المتحيز ،أو المتعصب ، أو صاحب الهوى أن يتناول موضوع العقل بأسلوب معتدل صحيح ؛ لأن التحيز يعنى الميل بعدا عن الصواب ، والمتعصب جاهل بالضرورة وأحمق بالطبع ولوكان متعلما ، وصاحب الهوى قصير النظر ضيق الأفق جاهل بالحقيقة ، وكل هذه الصفات الذميمة ضد سلامة العقل والفكر.

ويرتبط الإنصاف بالتجرد ، فبقدر ما يكون الإنسان متجردا بقدر ما يتيسر له الإنصاف ، فلا يستطيع صاحب الهوى أو الميل أن يكون منصفا. والتجرد شرط للإنصاف والموضوعية والسلامة العقلية ، خصوصا فى معالجة الموضوعات المعنوية الحساسة والشديدة الحساسية. والتجرد المطلق ليس فى طاقة المخلوق ؛ لأن المخلوق محتاج بطبيعته ، فكيف يتجرد من أشياء لا يستطيع الاستغناء عنها!

ويتناسب ميل الإنسان للشيء مع مدى شعوره بالحاجة اليه ، وبقدر ما يستغنى بقدر ما يستطيع أن يتجرد ويقاوم الميل. ولذلك فعدم التعلق بالدنيا أحد علامات التجرد ؛ "فالحرص أذل أعناق الرجال". والمتأمل فى تاريخ الخلائق يلمس أن أشهر الأحرار كانوا يشعرون بأكبر نصيب من الاستغناء ، كما اشتهر

أبرز المنصفين بالتجرد من الهوى ومقاومة ضغوط الاحتياج المادى أو النفسى أو الاجتماعى. ومثال "غاندى" يستحق الدراسة من جانب "العلمانيين" ومن على شاكلتهم ، وسير الأنبياء والصالحين تنير طريق المؤمنين.

والاستعراض العام للأخطاء البشرية يشير إلى ارتباطها بالأهواء وتلبية الرغبات العاجلة والميل الأنانى المفرط للذات وما يرتبط بها ، وحب النفس بجهالة. وينبه الله المؤمنين إلى وجوب التجرد ؛ كشرط للعدالة إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ - الآية ١٣٥ - سورة النساء. هذا توجيه وتحذير لمن يعقلون ، وهم الذين آمنوا ، أما أهل الكفر والضلال فلن يسمعوا ولن يعقلوا.

ومن فوائد التجرد - هنا - أنه يثنى المؤلف عن طرح رؤيته الخاصة على القارىء ، لكن فقط يطرح مقدمات تذكيرية ومحاولات للمس الحقائق والإشارة إليها ويترك للقارىء استخلاص ما يراه. نَطْرح الأسئلة للحث على التفكر تاركين الإجابة للقارىء اللبيب ، كل حسب رؤيته. وفى طرح القضايا نلجأ أيضا للتبسيط والتجريد غير المخل ، ففى حالة التجريد لن يختلف عقلان على أن ال ٨ المجردة أكبر من ال ٧ المجردة ، ولن يختلفا فى وضوح النور عن الظلام ، أو علو السماء على الأرض ، هذه هى أبرز مزايا التجريد. هذا ولا ننسى أن

المسائل ليست بهذه البساطة ، لكن سنحاول التبسيط بوضع جوهر الشيء مقابل جوهر منافسه بعد طرح القشور والغشاوات.

وفى محاولتى للتجرد النسبى - قبل الدخول فى موضوع العقل- ما زلت أشعر أن الطابع المهنى (الهندسى) يغلب على أسلوبى فى التحليل وعرض القضايا وتقديم البرهان ، وربما يعتبر ذلك ميلا للهندسة أو تحيزا لها ، فأحاول إقناع نفسى بأن ذلك ضرورة لازمة ؛ فقد يعتبر هذا الكتاب مدخلا لتناول العقل من الناحية الهندسية مستفيدا بما تقدمه الهندسة من دقة وتحديد وتنظيم وموضوعية وتجريد. وأحاول الحذر من المغالاة فى ذلك لأن الأمور ليست كلها هندسية ، وليست بسيطة كخطوط الهندسة ، وليست حادة الحدود ولا مجردة ، بل التداخل والتشابك الدقيق هو السمة التى تبدو غالبة على طبيعة العقل وقضاياه.

وبعد عصر الذهن مرارا وتكرارا ، لم أجد أمامى وسيلة لتقليل الخطأ إلا الالتجاء لطلب العون ممن بيده ملكوت كل شيء ، أى التجرد من الحول ، فلا حول ولا قوة إلا بالله. ولقد حاولت حصر أسباب الضلال التى كشفها الهدى النورانى الذى ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ الآية 42 - سورة فصلت ، فبدت أسباب الضلال مركزة فى تغييب العقل ، الذى يؤدى إلى: اتباع الهوى والكبر والتعصب والغرور والتحيز والغضب والأنانية ، وسوء الظن والعناد والحقد والحسد وكلها صفات ذميمة تطعن فى سلامة العقل ، وتتنافى مع مكارم الأخلاق التى بُعث من أجل إتمامها

سيد ولد آدم – صلى الله عليه وسلم. فقلت: لا بأس من توفير مقاومة الميل الهندسي لتركيز الجهد في مقاومة ما يتنافى مع مكارم الأخلاق.

لقد حاولت جاهدا التخلص من هذه الأسباب – ومازلت أحاول – كلما شعرت بآثار لها في نفسي. ولإقراري بأنه ، ما من عمل يعمله الإنسان اليوم إلا ويود في الغد أن يُعَدّله ؛ ليبلغ ما لم يبلغه بالأمس ، لذلك فكل فقرة كتبتها كنت أتركها مدة من الزمن وأعود إليها فأستبين فيها نقصا أحاول تداركه وصعوبة أحاول تخطيها ، وأعود إليها بعد ذلك مرة أخرى ناقدا ومستبعدا "الأنا" وأي كلمة ، أو عبارة تحمل رائحة غضب ، أو شبهة هوى ، أو تعصبا لرأي ، أو تحيزا إلى فكر أو جنس أو لون أو دين أو مذهب أو فرد أو قوم أو طائفة أو مهنة أو لغة....إلخ.

وبعض الأفكار ربما لمست فيها اندفاعا أو حماسا يجب كبحه ، فطرحتها – فرادى – على بعض من أثق في فكرهم بغرض المناقشة لمعرفة رأي غيري فيها قبل نشرها.

وبعد محاولات مع النفس لفترة طويلة أستطيع أن اقول (أو أزعم) أنه – بفضل الله – تم التخلص من كثير من التحيزات التي استشعرتها في النفس ، وذلك بمحاولات التجرد وتدريب النفس عليه. أما البقايا الخافية في النفس فلا أرى لي حيلة فيها إلا استمرار التقليب والتفتيش عنها ومطاردتها ، وأحسب أن

ذلك سيستمر إلى آخر العمر. ولقد حاولت تلمس خطى من أحسبهم على خير. وفيما يلى أذكر خلاصات لنماذج من تجرداتهم وجهادهم فى مقاومة الهوى وما يتنافى مع التجرد ، وأنقل بعض أقوالهم بمعناها محاولا الاستفادة بها وتطبيقها.

قال أحدهم : لقد آنست فى نفسى - بعد حين - أن الإشفاق على الآخرين حل فى قلبى محل أى مشاعر غير حميدة ، وأحسست كيف أن التسامح يوفر لصاحبة أقصى درجات الراحة النفسية فى الدنيا ، فضلا عن الثواب المرجو فى الآخرة. وكم لمستَ لدى النفس من ضوابط يمكن أن تمنعها - من مجرد أن يخطر فى البال مضايقة الآخر أو انتقاد أحد أحواله - ضوابط تقول: احذر وتذكر أن هذا الآخر له رب (جبار سميع عليم) ، ففلان خلق الله وأخوك فى الإنسانية ، وكان فى قدرة الله أن يبدلك مكانه ، **فلا تكونن من الجاهلين** ، بل ربما أن غفلتك عن مساوئك هى التى شغلتك بمساوىء الآخرين.

وقال آخر: كم شكرت - صادقا - أناسا أساءوا إلىّ ؛ ثقة فى أنهم قد أحسنوا إلىّ دون أن يقصدوا ذلك ، فما أهنأ أن يجد الإنسان فى صحيفته - يوم القيامة - حسنات لم يعملها ، ولكنها أضيفت لحسابه من عمل الآخرين الذين أساءوا إليه فى الدنيا.

وقيل : أحسب أن حكمة العليم الخبير قد زرعت فى ماضى حياتى ما نبهنى مرارا لإمعان النظر والاعتبار ، مما دفعنى لتفكير طويل كان يدور فى ذهنى منذ الصغر. فمجرد مرورى بأطلال مساكن الذين يذكرهم الناس بالظلم كان كافيا لشغل تفكيرى لعدة ساعات. وقد كنت أتعجب كيف يُسلم زملائى بديانات ومذاهب آبائهم ببساطة وتلقائية ، رغم علمهم بوجود ديانات ومعتقدات ومذاهب أخرى ، ربما يكون أحدها هو الأصح. وكنت أتحين أى فرصة تُمكننى من المقارنة والتمييز ، فجلست مع القساوسة وتناقشت معهم ، وقرأت فى التوراة ، وفى عدة أناجيل ، كما قرأت عدة كتب عن النصرانية واليهودية والبوذية والزرادشتية والشيوعية بأقلام أتباعها. وقد جلست أياما وليالى مع بعض أئمة المسلمين الشيعة وقرأت ما تيسر لى من كتبهم ، وصبروا على وصبرت عليهم.

ولقد كان كل ذلك فى سبيل الحقيقة ، وحتى لا أكون مجرد وريث لدين أو فكر أو مذهب أو معتقد أهلى أو مجتمعى ؛ فلا فضل للوارث فى الميراث ولكن عليه تبعاته ، ولا يصح اعتبار الدِّين ولا المعتقدات من الإرث أو النسب ، فالكفر أخرج أبا لهب (القرشى) من نسب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأدخل فيه الفارسى (سلمان) ، رضى الله عنه.

و برجاء أن يتيسر لى جواب حين يسألنى ربى - يوم الحساب : عبدى لم قصرت فى البحث عن الطريق المستقيم الموصل إلى ساحة رضاى ؟ لم أهملت

عقلك الذى وهبتك إياه؟! لذلك فقد دعوت معتقداتى كلها لمركز العقل وبؤرة الشعور ، دعوتها أكثر من مرة ، بينى وبين نفسى - وعلى فترات وبتمهل - واحدة بعد الأخرى ، دعوتها للتمحيص وتقصى حكايتها ومصدرها وتاريخها - فى عقلى - ومدى سلامتها وسندها ، والبراهين والأدلة التى تدعمها ، والنقد الموجه إليها من الآخرين ، فصمد من تلك المعتقدات ما صمد فأعيد مكرما إلى مكانه فى الذاكرة أشد رسوخا وتوقيرا ، وترنح منها ما ترنح فتم تشييعه مستراحا منه وغير مأسوف عليه ، مع الحذر من آثاره الخافية ، وكمونه ضمن تفاعلات سابقة ، ما زال نتاجها حيا فى العاطفة.

ولقد كنت وما زلت أسخر من الحدود بين الدول والبلدان ، وأقر بأنه لا فرق عندى بين الإسكندرية وبرشلونة أو نيودلهى. ولا أميز من البلدان إلا ما ميزه رب الأرض والسماوات - بعلمه وحكمته - وهى: مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. وحين يتطلب السعى من أجل المعيشة - أو دواعى الواجب -الانتقال من بلد إلى آخر ، فلا أشعر بالغربة التى يشعر بها البعض. فالدنيا كلها ملك الله و هو - سبحانه وتعالى - يحيط بكل شىء ، فمم الوحشة إذن ما دام هو - سبحانه وتعالى - خير مؤنس؟!
اللهم متعنا بلذة الأنس فى رحاب الطاعة وفى نعمة الرضا.

وروى عن أحد الدعاة إلى الله ، أنه أثناء تعذيبه فى سجون أحد الطغاة قيل له: لقد سئمنا من تعذيبك و لم تجزع! يمكن إعفاؤك من هذا السجن ويُصرف لك

راتب شهرى وأنت معزز فى بيتك لو تخليت عما تدعو إليه ، وتكون فى حالك وترعى عيالك وتكف عما تدعو إليه. فقال: إن النفس التى أمامكم مبيعة ، فكيف تباع مرة أخرى؟! فسئل : مبيعة لمن؟ أجاب: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ....﴾ - الآية 111 - سورة التوبة ، إننى أتعامل مع الناس على الأرض وقلبى متجه نحو السماء.

وفى محاولة الترفع عن الغمز واللمز حرصت على عدم انتقاد أى شخص ، أو التقليل من شأنه أو من قدراته ، ولكن النقد موجه للتصرفات دون الأشخاص ، ودون بخس الناس أشياءهم أو السخرية من آرائهم إن كانت صادقة. ومن الإنصاف أن يضع الإنسان نفسه مكان من يفكر فى نقده ، عندئذ سيجد أن مؤشر الميزان تحرك ناحية الاعتدال ، فيفيق.

ولقد حرصت فى هذا الكتاب على عدم ذكر اسم أى إنسان ، لا بالذم ولا بالمدح ، إلا أسماء بعض رسل الخلاق العليم - عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وقليل من أسماء بعض صحابتهم الأطهار والتابعين - رضوان الله عليهم أجمعين. ثم بعد ذلك ذكرت قلة قليلة من المشاهير ، ذُكرت (ضمن محاسنها) لضرورة التوضيح ، وفى ذلك ضمان لعدم ذكر أى اسم إلا بخير ، بيد أن ذكر بعض الأسماء المعاصرة كان سيساعد فى توضيح وتحديد ما يراد التعبير عنه ويجذب انتباه القارىء ، ولكن تم التضحية بذلك فى سبيل التجرد أيضا

والنجاة من زلات اللسان ، وحتى لا نتجاوز بالتزكية أو التحقير ما لا برهان لنا به عند الله – جل وعز – فهو وحده الأعلم بحقيقة القلوب.

ولنتأمل قول الخلاق الحكيم بخصوص الإنسان : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ – الآيات 8-10 – سورة البلد. فالعينان رمز لتعدد مداخل (حواس) العقل ، واللسان – مفرد – رمز لمخارج العقل ، والنجدان (الطريقان) رمز لحرية الاختيار (بالعقل) بين طريق الخير أو طريق الشر. واللسان (المفرد) محكوم بشفتين ، وفى ذلك إشارة ضمنية إلى وجوب السيطرة علَيه (بالعقل) ، فقد كان فى الإمكان خلق أكثر من لسان وشفة واحدة أو بدون شفاة ، كما هو الحال فى معظم الأجهزة الصوتية. فهل يعقل الإنسان هذه المعانى ، فيحكم لسانه وقلمه وجوارحه!

وبناء على ما سبق يتضح أن أبرز ما تبقى من هويتى – بعد محاولة التجرد – هو أنى مسلم الديانة ، هندسى المهنة ، وإن كنت لا أمانع كثيرا فى التجرد من الثانية أو تناسيها – عند اللزوم – فى سبيل تحقيق أكبر نسبة تجرد مهنى ، فإن محاولة التجرد من الأولى (الإسلام) أثناء لحظات التفكير والكتابة ثبت فشلها ؛ لسببين رئيسيين : أولهما ، أن الإسلام فى ميزان العقل هو كمال الدين وتمام النعمة ، وكفى بها نعمة للدنيا والآخرة ، ﴿... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً** ....﴾ الآية 3– سورة المائدة. فأى عقل ذلك الذى يرفض نعمة الهداية المنقذة! وثانيهما ، أن ترك

نور الإسلام يعنى الغرق فى الظلمات الحالكة والضلالات المهلكة ، فكيف نُقْدم على الحديث عن تنظيم العقل بعقل مظلم والعياذ با لله!

لقد حاولت مرارا جعل هذا الكتاب خاليا من الجمل والبراهين المأخوذة من مصادر ديانتى ؛ حتى لا يشعر القارىء - غير المسلم - بما قد يمس تجرد المؤلف ، فوجدت أن الخسارة ستكون بالغة لدرجة تجعل إلغاء مشروع الكتاب أفضل من الإقدام عليه ؛ لأن النتيجة ستكون مسخا وليست تجردا ، بل أشد من المسخ ؛ لأن استبعاد الحق يفسح الساحة لضلال الباطل. لقد أدركت أن التجرد يعنى التخلى عن الميل ، لا التخلى عن الحق أو الفضائل ، بل إن التجرد يقوى مع التحلى بالفضائل والارتكاز على الحقائق ، وبذلك استقام مفهومى للتجرد ، فلا يطلب من القاضى الانسلاخ من مهنة الحقانية لكى يحكم بين أصحاب المهن بتجرد. ولا يلزم إبعاد النور لكى نعدل بين المعتمين ، أو لكى لا نعكر مزاج بعض الثعابين.

وفى محاولة موازنة الميل للتوجه الهندسى أثناء تصور العقل ، وفى نقاش مع أحد الأطباء حول ماهية العقل وعلاقته بالمخ تحيرنا كثيرا ، وإذا به يفكر لدقائق ثم يقول : "هل تقصيت ما جاء فى القرآن بهذا الخصوص؟ إنه أوثق مرجع فى هذا الموضوع. إن رأى الطب فى العقل لم يتحدد بعد ، وهو يتعلق أساسا بالجانب الفيزيائى ، أى المخ".

ولقد حاولت الاكتفاء باقتباس المعنى النورانى دون الإشارة إلى أصل النص الشريف ، فشعرت كأننى أهرب من شبهة ضعف التجرد لأقع فى شبهة السرقة وفقدان الأمانة العلمية ، فرضيت بالأولى بعدا وترفعا عن الثانية.

إن ما فى القرآن من إشعاع علمى نورانى لكفيل بجذب انتباه العقل الفطرى السليم. ونوعية الاستجابه لما يكشف عنه القرآن من علم مكنون - للقلوب السليمة - يتعذر وصفه بالتعبيرات اللغوية ، لكنه نطق الجوارح ، وحنينها إلى كلام بارئها حين تتحرر من عناد العقل المشبع بالتعصب ، والمغيب بخمر الغفلة ، والذى ينوء بثقل الشهوات. ويصف علام الغيوب ومقلب القلوب حال بعض القسيسين والرهبان الذين تهيأت له أسماعهم فى لحظة صفاء وتجرد فيقول: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ؛ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ الآية 83 - سورة المائدة. استجابة بدموع الفرح بعد معرفة **الحق** ، فأى تعبير لغوى يعدل فيض دمع العينين! ليس من العقل ولا من الإنسانية ولا من الأمانة استبعاد مثل هذه المعانى ، أو مقاطعة هذا النبع النورانى الصافى. ولقد فكرت فى نقل بعض الجمل من بعض الأناجيل أو من التوراة لكنى خشيت أن يساء فهم ذلك ففضلت ألا أفعل.

وفى ختام هذا الجزء ، يبدو للمؤلف أن قمة درجات التجرد تبدأ بصدق الشعور بالتجرد من الحول والقوة ، أى الشعور بمعنى "لا حول ولا قوة إلا

با لله" ، وقد يستدل عليها بالشعور الداخلى بعدم حب المدح ؛ إيمانا بأنه حتى وإن كانت بعض النفوس تستحق بعض الثناء على إحسانها فإنه يسعدها أن يوجه هذا الثناء إلى الذى أوجد هذه النفوس وهداها إلى الإحسان.

اللهم امنن علينا واجعل آخر دعوانا أن **الْحَمْدُ لله رَبِ الْعَالَمِين**.

obeikandl.com